الروائي الإيطالي بيترو غروسي: أكتب في السفر

عالمي مرآة متشظية وأعمالي وحوش تخرج من الظُلمة

رغم أنّـه لم يتجاوز الأربعين إلاّ بعام واحد، فقـد صار الروائي الإيطالي بييترو غروسّي واحداً من أهم روائيي إيطاليا وأحد قلائل الكتّاب الإيطاليّين الذين انتبهت دور النشـر في اللغـات الأخرى إلى أعمالهم وترجمتها إلى الإنكليزيـة على الفور، وتبعت تلك ترجمات أخـرى إلى لغات عديدة، وقد تشهد الشهور اللاحقة صدور روايته «عبور» باللغة العربيّة.

التقيت بييترو غروسّي، خلال عرض كتابه الأخير «رُعب» في فلورنسا، وعدني بالاتّصال حين ينتهي من سـفراته العديدة ويعود إلى توسـكاني. وبعد بضعة أسـابيع رنّ هاتفي وإذا به غروسّي الذي يُخبرني بعودته إلى المدينة وبرغبته في اللقاء معي للحديث، للمرّة الأولى مع القراء العرب، عبر الحوار الذي سنُجريه.

عرفان رشيد
كاتب عراقي

بيترو غروسي.. قلم جديد يتألق في سماء الرواية الإيطالية

"أنـا دائـم السـفر، وتولـد رواياتي جميعها خلال السـفرات التـي أقوم بها، سـافرت ورحلت طـوال عمـري، ولم يكن الأدب الذي أحببت أكثر من غيره، إيطاليّاً، لذا، فعندما أرغب في رواية شـيء أشـعر بالحاجـة إلـى الذهـاب إلى مـكان آخر وأوسـع من بلادي، وليس مسـتبعداً أن تولـد إحـدى رواياتي في بلـد عربي من شمال أفريقيا أو من المشرق".

هكذا ابتـدأ بييترو غروسّـي حديثه معي، بعـد أيّام قليلة من صـدور روايته الجديدة «رُعب»، التي صدرت بعد أقل من سنتين من صدور رواية «عبور». «ها نحن، مـرّة أخرى»، هكـذا تبدأ روايـة «عبور»، بهذه الجملـة التي يقولها بطـل الرواية كارلـو حين تبلغه المكالمـة الهاتفيّة من والده، مُستشعراً مصيبةً جديدة، كما هي الحـال كلّما اتصّل به والده المنفصل عنه منذ أعوام.

● **الجديـد:** بييترو غروسّـي، ابتـدأت الكتابة في وقت مبكّـر، بالضبط كما ابتـدأت الإبحار علـى متن قارب والدك، وأنت في سـنّ الطفولة، وربّمـا لم تكن قد تجاوزت العاشـرة من العمر. وكلاهما، الإبحـار والكتابة، رحلةٌ في المجهول صوب المجهول. كم أسـهم كلّ واحد من هذين الأمرين في تطوير الآخر، مع الأخذ في الاعتبار أنّك ابتدأت النشـر في سـنٍّ مبكّرة للغاية، في الثانية والعشرين؛ ركوب البحر والكتابة، عرض البحر والصفحة البيضاء؟

■ **بييترو غروسّـي:** هذا سؤالٌ هام، جميل ومعقّد في آن، وقد يَسْـهُلُ عليّ أن أذكر لك ما الذي يجمع ما بين الأمرين لديّ، وربّما يكون ذلك هو الجواب الأول والأيسر، لكن من العسـير عليّ أن أُحـدّد ما الذي منحه حـبُ أحد منهما إلـى الآخر. لكن ما أجده شبيهاً إليّ سواءُ في البحر أو في الكتابة، هو مـا له من آصرة بطريقتي في الكتابة، وليـس ذلك قابلاً للانطبـاق على الجميع بالضـرورة؛ فكلاهمـا، البحـر والكتابة، بالنسبة إليّ عبارة عن المكان الذي يُهيمن عليه المجهول، وحيث يبدو المرء صغيراً للغاية.

ولـو حاولـت البقـاء في إطـار لغة الإبحـار، فإنّي أقول لك بأنّ من العسـير على المرء تحديد مسار الإبحار الصحيح فـي بعض مناحـي الحيـاة، وبالذات في عملية الكتابة، وقد يبدو غريباً أن تسـمع منّـي أقول بـأن البحر أسـهلُ بكثير من الكتابـة، لكنّـه كذلك، ففي البحـر تُعينك الريح وتسـاعدك البوصلة، كما تُساعدك فـي يومنـا هـذا كل الأدوات والأجهـزة الإلكترونية، وحتى لو لم تستعنْ بالأجهزة الإلكترونيّة، فإنّك حين تنساق وراء الريح وتسـتعين بما توفّره لـك الطبيعة، فإنك ستجد المسار الصحيح، لا محالة.

أمّـا الوضـع خـلال الكتابـة، فهـو مختلـفٌ تماماً، فقد وجب علـيّ أن أتعلّم طرائـق العثور على المفـردات الطبيعية لهذا النوع من الإبحـار والتي يمكنها أن تقودنـي، وإذا مـا أردت الاختـزال فإنّي أقـول لـك، بأنّ عليـك، ككاتب، أن تشـعر بنفسـك في كلّ يوم بأنّك لست إلاّ مُبتدئاً، أن تسـتيقظ كلّ صباح دون أن تكون لديك أفكارٌ أو حلول جاهزة، أو مسارات تقودك إلى المكان الذي ترغب الوصول إليه. وقد لا تُـدرك مغزى هذا الأمر في سـنّ اليفاعة والشـباب، لكن ما أنْ تكبُر وتبدأ بتحليل ومراجعـة ما كتبـت، فإن عمليـة الكتابة تُصبح إذّاك مشـكلة حقيقيّة وأكثر إيلاماً في الكثير من الأحيان.

أن تكتـب كلّ يوم يجعـل منك ضائعا بمرور الوقـت، وكما تعلّمت الإنصات إلى الريح وإلى نسـائم البحـر خلال الإبحار على متـن مركب، وكيفية إدارة الأشـرعة وأدوات الإبحـار الأخرى، فقد تعلّمت عبر السـنين كلّ الطرائـق والحيل والمخارج الكتابيـة التـي تُسـاعدني علـى إدراك مسـاري والتحرّك إلى أمام متتبّعاً نسائم الأفـكار التـي تأتينـي، أو تجتاحني في بعض الأحيان.

المُسوّدةُ استسلام لرياح الرؤى

هذه هي طريقتي في الكتابة، فليسـت المسـوّدة بالنسـبة إلـي إلاّ استسـلاماً للريـاح ولأمواج الأفـكار والتأملات. ففي البـدء لا فكرة واضحة لـديّ على الإطلاق إلـى أين سـيكون مسـاري. أتْبَـعُ خُطى شـخصياتي، وخُطـى الصـوت الراوي وأتبـع الحكايـة. لا أُخطّـط لأيّ شـيء، وكتابتي في هذه المرحلة سـريعة للغاية، ولا يـدوم إنجـاز المسـوّدة الأولـى من الكتاب إلا أسابيع معدودة، بالتناسب مع طول النص بالطبع.

أكتب المسـوّدة الأولـى بالقلم، ومن ثمّ أبدأُ بعملية النسـخ على الكومبيوتر، وأُمضي شـهوراً وربما سـنين في إعادة القراءة والتصحيـح والإضافة والحذف، وفي الواقع فإن الزمن المُسـتغرق ما بين بدايـة الكتابـة والانتهاء مـن الكتاب قد يـدوم لثلاث أو أربع سـنين. وقد تتقاطع الأعمـال مع بعضها، فبينما أُصحّح كتاباً أكـون قد بـدأت بمسـوّدة العمـل الآخر، ويحدث أحيانـاً أنْ أتمكّن من العمل على ثلاثة مشاريع مختلفة وفي مراحل تطوير متباينة فيما بينهـا، لكن ينبغي أن تكون هـذه المراحل من حيـاة الأعمال مختلفة فيما بينها، أي بمعنـى ليس بإمكاني أن أبـدأ بالمسـوّدة الأولى لكتابيـن في آن واحد.

كتابة رعب

● **الجديـد:** وهل ابتدأت مسـوّدة «رُعب» خلال عملية تصحيح وإعادة كتابة «العبور»؟

■ **بييترو غروسّي:** نعم، ابتدأت بالمسوّدة الأولـى لـ «رُعـب» قبـل أن تنشـر دار «فيلترينيلّـي» الطبعة الأولـي لـ«العبور»، والـذي تمّ في أكتوبـر 2016، فيما كنت قد ابتـدأت بالمسـوّدة الأولـى لـ«رعب» في ديسـمبر 2014، وهذا يعنـي ما يربو على سـنتين من صدور «عبور»، والذي لم أنته مـن صيغته النهائية قبـل وقت طويل من البـدء بكتابـة «رُعب»، فقد كنـت انتهيت منها في نهايـة 2013 أو في بدايات 2014، لذا بإمكاني القول بأنّ الكتابين قد تقاطعا فيما بينهما.

● **الجديـد:** وعـمّ تتحـدث روايتـا «رُعـب» و«العبور»؟

■ **بييترو غروسّـي:** روايـة «رُعب» تتحدّث عن الظلال التي نحملها معنا في دواخلنا وعن القدرات الجاذبة التي يمتلكها سواد العالم المحيط ورماديّته التي في دواخلنا. أما في «عبـور»، فثمة فيهـا مراحل تبرز خلالها تلـك الرماديّـات والظلال ويطفح إلى السطح الوحش الساكن في شخصية الأب، إلخ... وأعتقد أن اقتداري من الرواية جاءني ممّا يمثله البحر بالنسبة إليّ، فهو منْ حرّرنـي ومنحني القوّة علـى القيام، دائمـا، بالخطـوة التالية إلى الأمام، أو ربّما بإنجاز خطوة مختلفة، أي بمعنى أن أتواجه للمرّة الأولى مع منعطفات داخليّة أكثر غموضـاً، وهي منعطفات تنتمي إليّ بالطبع، كما يُمكن أن تنتمي إلى الجميع، وعلـى أيّ حـال انتمـت إليَّ فـي مراحل متفاوتة. وثمةَ فـي كتبي دائماً منعطفات غامضة، وحوشُ تخرج من الظُلمة، وحتى صفحات كاملة مـلأى بالرعب، ويبرز ذلك بوضوح في رواية «رُعب».

كونراد وليس همنغواي

● **الجديـد:** دون أيّ رغبـة أو نيّـة فـي إجراء مقارنـات أو مقاربـات بيـن «عبـور» وروايات عالمية تناولـت علاقة المُبحر مع اليمّ ومكوّناته، كـ«الشـيخ والبحر» و«موبي ديك»؛ فإنّ الخصم، في هاتين الروايتين، يكمـن في لُجّة البحر وما بيـن مخلوقاتـه، فـي حين يكمـن الخصم في «عبور» على اليابسة، أو بالأحرى يبدو وكأنّه يتواجد في داخلك، كما قلت أنت نفسك.

كم كانـت الأعمال الكبـرى لكتّاب مثل همينغـواي وميلفيل وكونـراد، حاضرة في ذهنك وأنـت تكتب «عبور»؟ وكـم انفصلت عنهـا لتتمكن من رواية البحر عبر ما يجري على اليابسة؟

■ **بييترو غروسّـي:** سـؤال جميل آخر وهـام حقّاً. لا أدري، ما إذا كانت لديّ، بوعـي، مرجعيـة ما من بيـن الكتّاب الكبـار عندمـا أكتـب قصّة مـا. أنا أقضـي بالفعل وقتاً طويـلاً للتواجه مـع موضوعة أُحبّها كثيـراً، كما هي البحـر، أتأمـلّ، وأُعيـد التفكيـر فيه طويلاً لتمثّله بشـكل كامل، ولأتركه فيما بعد ينساب بسلاسة.

قـد يكـون جميع هـؤلاء الكتّـاب قد خطروا ببالـي، وأنا أكتب «عبور»، وربّما كان جوزيـف كونـراد، أكثرهـم تماثـلاً أمامـي، وهو الآخـر أبحر كثيـراً داخل نفسـه، كان يركـب البحر ويـروي عنه، لكنّه في الواقـع كان يروي ما في داخله. ويخطـر ببالي الآن كتابـا «خيط الظلال» و«قلبٌ في الظُلمة».

إنّ العالـم الموجـود فـي رواياتي يبـدو كمرآة مُتشـظيّة تُظهـر ما يحدث فـي الداخل. والقصّة الواردة في «عبور» ليست حكاية عن البحر بالمطلق، بل هي حكايـة المواجهة ما بيـن رجلين، وفي العمق أكثر هو الصِدام ما بين الوحوش التـي تسـكن داخـل هذيـن الرجليـن، عـن قدرتهما وعـن عجزهمـا أيضاً في التواجد، أحدهما إلى جوار الآخر. شابٌ صار أباً طري العـود يحتاج إلى إزاحة الثقـل الكبيـر الـذي تركه علـى كاهله والدُ عسـير الطبع، وكـي يحولَ دون أن يقـع ذلك الثقل على كاهـل ولديه. وربّما أحسست، في اللاوعي، بأنّ كل ما يحدث في القصّـة، لم يكن إلاّ ليحدث في عرض البحر، وفي ذلك البحر بالذات.

كنت أشـعر بحضـور هـذه القصّة فـي ذهني منذ وقـت طويل، وكنت أسـتمع إلـى الهمـس الصاعـد منهـا، همس والدٍ يسـتعين بابنه لمسـاعدته في عملية عبور للبحر بقـارب. وقـد وُلـد الكتـاب حقـاً عندما اقتـرن ذلك الهمـس بمكان مُحـدّد الملامح، وذلـك المكان كان «غرينلانـد»، كما لو أنّ هذه القصّة مـا كانت لتدور فـي أيّ مكانٍ آخر. ففـي لحظة تغـادر الشـخصّيتان العالـم، تهجرانـه، فـي لُجّـة ذلك البحـر كثيف الميـاه كما الحليب، وهو مكان شاهدته بالفعل، وصار، بالنسبة إليّ، المسرح الأهم للّقاء/ المواجهة والصدام فيما بينهما.

قدم في السفر

● **الجديـد:** لكتابة روايتي «عبـور» و«رعب»، قرّرت، أو بالأحرى أجبرت نفسـك على الذهاب بعيداً عن إيطاليـا. لِمَ هذه الحاجة إلى الذهاب إلى مكانٍ آخر لتروي ما يحدث في داخلك؟

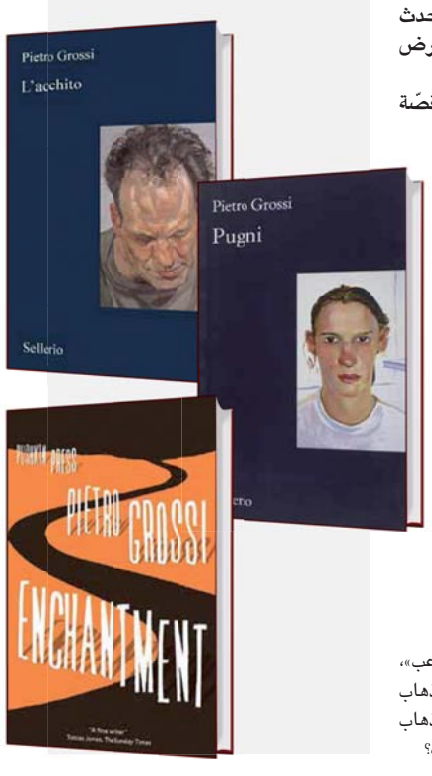

■ **بييترو غروسّـي:** لأكثر الاسـتجابات بسـاطة وعجالـة فـي هـذا الإطـار بالتآصر مع سـيرتي الشخصية، على ما أعتقد، فقـد ترعرت في عائلة، كانت إحـدى قدميها مغروسـة فـي أميركا؛ وأنا شـخصياً سافرت وارتحلت طوال عمـري، ولـم يكن الأدب الـذي أحببت أكثـر من غيـره إيطاليّاً، لـذا، فعندما أرغب في رواية شـيء أشعر بالحاجة إلى الذهاب إلى مكان آخر وأوسـع من بلادي.

أحسسـت، في الأسـبوعين اللذين قضّيتهمـا في ذلك البحـر صعوداً من سـواحل غرينلانـد وعابـراً المحيـط صوب كنـدا، وكأنّني أسـير على ذات خُطـى أبطالـي، ولـم يكن الإحسـاس بالحماسـة الـذي انتابنـي حيـن ابتـدأت بإدراك ما يحدث كالإحسـاس بالحماسـة التـي يستشـعرها مـن تأتيه فكـرة جميلة، بل تلك الحماسـة النزقة، المكهربـة والمُنبّهة إلى الطالع السـعيد فـي التواجـد فـي الأماكـن التي حدثـت فيها القصـة التي أرغب فـي روايتهـا، إنهـا ذات القشـعريرة التـي تستشـعرها عندمـا تلتقـي فـي الطـرف الآخر مـن العالـم، بالصدفة المحضـة ودونمـا أي موعـد، شـخصاً تعرفـه؛ ما الـذي يحصـل إذّاك؟ تعود إلى خاطرك أفكار صوفيّة وعن احتمالات القدر والمصادفات السـعيدة. إنّها ضربة الحظ التـي لا تتكرّر مرّتين فـي الحياة، ذلك هو بالذات ما أدركته، أيْ أنّ تلك القصّة لم تكن لتحدُث إلاّ هناك، في ذلك المكان، وليس في أي مكانٍ آخر في العالم.

> بييترو غروسّي: أكتب المسوّدة الأولى بالقلم، ومن ثمّ أبدأ بعملية النسخ على الكومبيوتر، وأُمضي شهوراً وربما سنين في إعادة القراءة والتصحيح

أنا القارئ الأوّل لما أكتب

● **الجديد:** عندما يسـتلم كارلـو، بطل رواية «عبور» المكالمـة الهاتفيّة من والده، يشـعر فـي الحال بخطرٍ داهم، فوالده لا يتصّل به إلاّ عندما يجد نفسه في لُجّة مصيبة أو هو بحاجة إلـى عون من ابنه؛ ومع علم الآخرين، ممّن يُحيطون بكارلو، بطبيعة آصرته مع والده، فهم يمارسون عليه ضغوطاً كثيرة، تسعى بعضها إلى إجباره على الاسـتجابة لطلب الوالد، وأن يذهب إلى ذلك اللقاء.

إلاّ أنّنـي أحسسـت، بعـد الانتهـاء مـن قراءة النص، بأن كارلو لم يسـتَجِب، فـي الواقع، إلى طلب والـده لإخراجه من الحَرَج الذي أولجَ نفسـه في خضمّه، ولا حتى انصياعاً لضغوط الآخرين من حوله، بل جاءت اسـتجابته رغبةً منه ليتمكّن من مصارحـة الأب بمـا كان يغلي في داخله منـذ وقتٍ طويـل، وهو مـا لـم يتمكّن من الإفصاح عنـه عندما نزل من المركب قبل سنين مضت.

أيٌّ من هاتيـن الصورتين هي الأقرب إلى قراءتك أنت لشخصيّة كارلو؟

■ **بييترو غروسّـي:** هنـا لا بُدّ لي أنْ أُمهّد للجواب، وأنْ أُخبرك بشـيءٍ ما عن طريقتـي في العمل علـى كُتبي؛ فأنـا، بتحصيـل الحاصـل، القارئ الأول لما أكتب، لذا فإنّ نظرتي حول مـا أكتب تتسـاوى مـع وجهة نظر الآخرين ورؤاهم، بشكل عام. أنا لديّ افتراض ثالث، إلى جانب الافتراضين اللذين أوردتهما أنت فهذه القصّة، برأيي ودون أيّ رغبة منى باستحداث مقارنات ومقاربات، تبتعد كثيراً عن أجواء «خيط الظل» لجوزيف كونراد، ولأنّ الشخصية الرئيسـية تتحدث عن البحـر وتتعامل معه، ويتحدّث الكتاب نفسـه عن عمليّة عبـور، فقد فكّرت بروايـة «خيط الظل»، وثمةَ الكثير ممّا قد يجعله متشـابهاً مع كتاب كونـراد، إلاّ أنّ الكتابين يتحدّثان عـن حالتيـن متباينتيـن، فـي «خيـط الظـل» يتمّ العبور مـن حالة الصبا إلى مرحلـة المراهقة، ومن ثمّ بلوغ المرحلة الأولـى من عمـر الشـباب، دون امتلاك وعي كامـل بعملية العبور هـذه، إذْ أنّ بطل الشخصية يجهل تمامـاً ما الذي بانتظاره.

وثمةَ أيضاً في «خيط الظل» أمر آخر أعتبـره في قمّة الإبداع وهـو أنّ عملية التحـوّل لا تتم خـلال العاصفة، بل عبر بحر هادئ كسـطح سـهلٍ مُعشـب، أي عبـر القدرة على التعامل مع ذلك الهدوء المُطلق للبحر، وهـذا، برأيي، ما يجعل الشـخصية أكبر بكثيـر وفيه تكمن، في ذات الوقـت، فالوقـت عظمـة وأصالـة الفراسة التي توصّل إليها كونراد.

لكـن في «عبور»، فإنّنا نجد أنفسـنا إزاء العبـور الأخيـر إلى عمـر البلوغ، العبور إلى المرحلـة التي يتحول فيها الشـاب، بدوره، إلى أب، بالتالي فإنّ ما يشـغلُ ذهنه وأنْ يسـعى إلى الحيلولة دون إلقـاء ثقـل المصائب علـى كاهل ولديه، بـذات الطريقة التي رماها والده علـى كاهله هـو. فكارلو بحاجةٍ ماسّـة إلـى حل مشـاكله مع ذاته ومـعٍ والده، وهو يُنصت إلى نصائح الآخرين ويُذعن لضغوطات النساء حوله. وكما بالضبط النسـاء اللاتي يتواجدن في حياتي أنا، وهـنّ، إنْ أردنـا يُمثّلن الحكمـة، إلاّ أنّ قراره للسـفر صوب العنوان الذي بعثه إليـه والده إنّمـا ولد مـن الحاجة إلى تلك المواجهـة، ولأنّه أدرك بأن هذه هي الفرصة الأخيرة التي بقيت لديه لحل كل مـا هو عالقٌ بينه ووالـده، فإنْ لم يلتقِ به الآن فإنّه لن يحل تلك المشـاكل أبداً، وسـينتهي به الأمر إلـى تحميل زوّادة المشاكل العالقة على كاهليه إلى كواهل ولديـه. لذا فإن القرار الذي يتّخذه، قرارٌ واعٍ بشـكل كبيـر، ويتّخذه مـن منطلق الرجولـة المُطلقـة، الرجل الـذي يقرّر ملاقاة مشـاكله وقَـدَرِه ومخاوفه. وهذا هو الأمـر المختلـف عن «خيـط الظل» لـدى كونراد. وهو ليـس ترجمةً للكلمة المقيتة «كاثارسيس» كما يحلو للبعض تسـميته، بل يأتي عبر مواجهة عاصفة بينـه ووالـده، وهـذه لحظـةٍ جوهرية في حيـاة من يُقرّر القيـام بتك الخطوة الجوهرية فـي حياته، وهي لحظة وعي كامل لأنّـك تُقـرّر التواجه مـع معركةً، سـواءٌ مع الذات، أو مـن يُحيطون بك، وعلـى أيّ حال مـع معركـة، ولو كانت صغيرة، وليـس في حالة الهدوء الكامل للبحر.

تنشر مقالات الصفحة 13 بالاتفاق مع مجلة «الجديد» الشهرية الثقافية اللندنية